الفصل الثامن

مسألة السودان

واستقالة شريف باشا

إن استقالة وزارة شريف باشا فى يناير سنة ١٨٨٤ لها أهميتها الكبرى فى تاريخ مصر الحديث لسببين (أولهما) ارتباطها بمسألة السودان وضرورته الحيوية لمصر، (وثانيهما) ان شريف باشا بهذه الاستقالة قد رسم خطة المقاومة الرسمية ضد الاحتلال الإنجليزى، فهو أول وزير مصرى فى عهد الاحتلال استقال احتجاجاً على سياسة الإنجليز وتصرفاتهم وتدخلهم فى شئون مصر؛ فاستقالته من هذه الناحية حادثٌ هام فى تاريخ الحركة القومية، لأن الاحتلال الإنجليزى ما كان ليتغلغل فى شؤون مصر، ويمعن فى عدوانه على حقوقها، لو لم يجد من الوزراء المصريين استخذاءاً واستسلاماً، ومعاونة له فى تصرفاته، فلو وجد من خلفاء شريف باشا فى الحكم ما لقيه منه من الإباء وإيثار الاستقالة الكريمة على التسليم فى حقوق البلاد، لكان نصيب سياسته الإخفاق لا محالة، لأن المقاومة الوطنية إذا جاءت من طريق الحكومة، كانت أقوى أثراً وأبعد مدى مما إذا اقتصرت على الناحية الشعبية، ولكن من حسن حظ الاحتلال وسوء حظ مصر أن خلفاء شريف باشا فى الحكم لم يتبعوا القاعدة التى وضعها، بل نقضوها واتبعوا قاعدة أخرى أضاعت على مصر استقلالها وكرامتها، وهى الاستسلام للإنجليز، وتنفيذ ما يأمرون به

جاءت استقالة شريف باشا على أثر استفحال الثورة المهدية، حين طلب الإنجليز من الحكومة المصرية أن تقرر إخلاء السودان وسحب جيوشها منه،

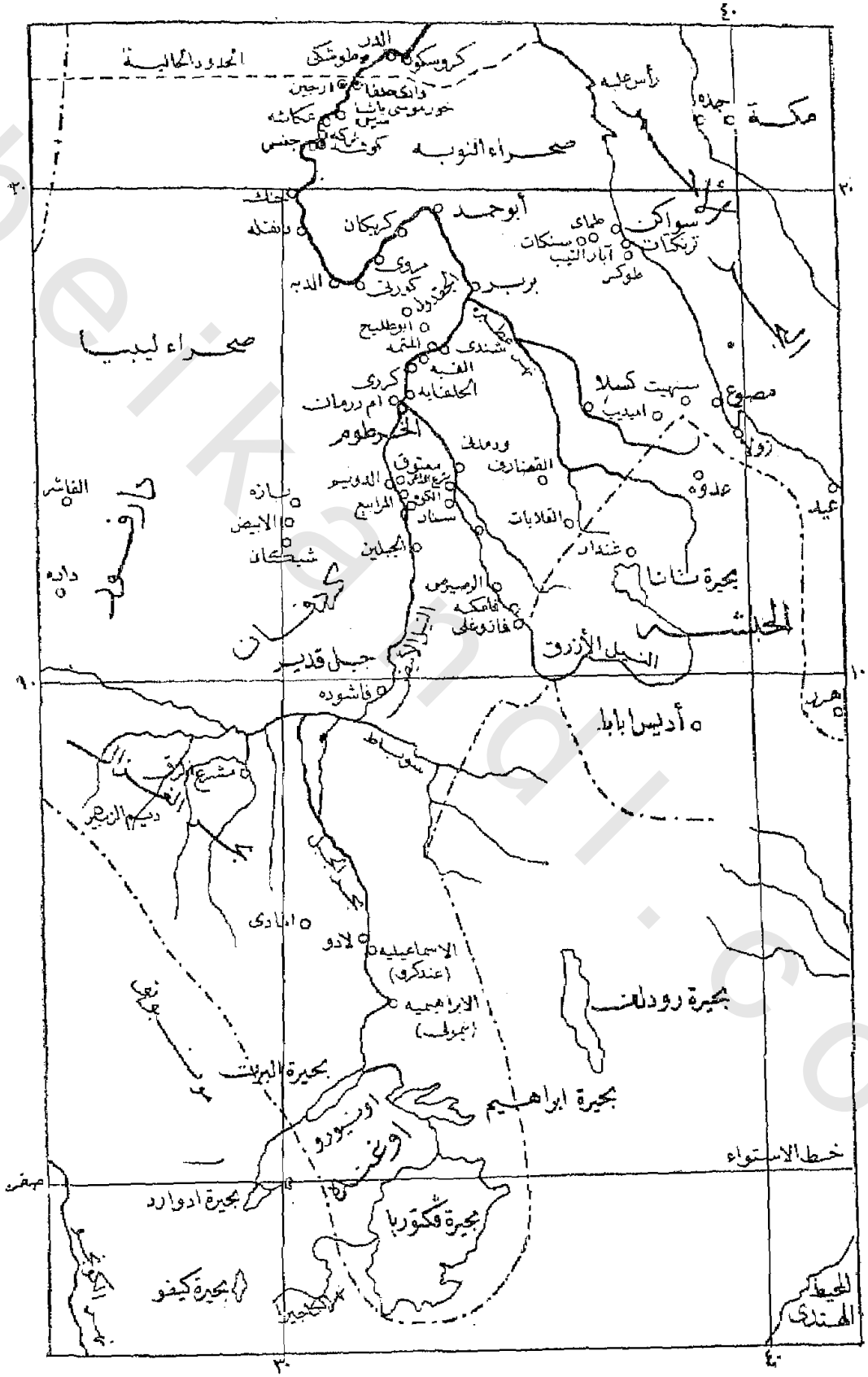

خريطة السودان فى عهد اسماعيل وأوائل عهد توفيق

(مقتبسة من كتابنا عصر اسماعيل ج ١ ص ١٣٤)

لذلك يجمل بنا أن نبين حالة السودان فى عهد الخديو توفيق باشا[1] والأسباب التى أدت إلى ظهور الثورة المهدية ، ثم نشوب الثورة ووقائعها ، إلى استقالة شريف باشا .

السودان قبل الثورة المهدية

كان السودان المصرى فى أواخر حكم اسماعيل وأوائل عهد توفيق يمتد جنوباً إلى خط الاستواء ، ويشمل بحيرة البرت وبحيرة ڤيكتوريا والبلاد التى بينهما ، إذ كانت مصر قد ضمت إليها مملكة (أونيورو) ، وبسطت حمايتها على مملكة (أوغنده) ، وبلغت حدود السودان شرقاً سواحل البحر الأحمر وخليج عدن ، ووصلت حدوده الجنوبية الشرقية إلى المحيط الهندى ، وضمت إليها فى هذه النواحى سواكن ومصوع وزيلع وبربره وهرر ، وسواحل السومال الشمالية ، وصارت جميع شواطئ البحر الأحمر الغربية من السويس شمالا إلى بوغاز باب المندب جنوباً ملكا لمصر ، وامتدت سلطتها إلى شواطئ خليج عدن من بوغاز باب المندب إلى رأس جردفون (جردفوى) ، ثم إلى رأس حافون الواقعين على المحيط الهندى ، وبلغت حدود الدولة المصرية غرباً إلى مملكة (واداى) الواقعة غربى دارفور ، (انظر الخريطة ص ٩٢)

وكان السودان مؤلفاً من المديريات والمحافظات الآتية :

المديريات والمحافظات	العاصمة
مديرية الخرطوم	الخرطوم
« سنار وفازوغلى	سنار
« بربر	بربر
« دنقلة	دنقلة

(١) راجع ما كتبناه عن السودان على عهد محمد على فى كتابنا (عصر محمد علي) ص ١٥٧ وما بعدها ، وعلى عهد اسماعيل فى كتابنا (عصر اسماعيل) ج ١ ص ١١٠ وما بعدها

المديريات والمحافظات	العاصمة
مديرية كسلا أو التاكه	كسلا
« فاشوده	فاشوده
« كردفان	الأبيض
« الفاشر	الفاشر
« داره مديريات دارفور[1]	داره
« كبكبيه	كبكبيه
« بحر الغزال	ديم الزبير
« خط الاستواء	الاسماعيلية(غندكرو) ثم اللادو ثم ودلاى

وكانت مقسمة إلى مأموريات : لوتوكا ، وبور ، ومكركه ، ومنبوتو ، وودلاى ، وفويره

محافظة سواكن	سواكن
« مصوع	مصوع
حكمدارية هرر	هرر
محافظة زيلع	زيلع
« بربره	بربره[2]

وكان آخر ولاة السودان فى عهد اسماعيل هو غردون باشا ، وقد استقال من منصبه فى أوائل عهد توفيق باشا ، على أثر إخفاقه فى تحديد التخوم بين مصر والحبشة .

---

(١) كما ذكرها مسداليا بك مدير دارفور فى عهد غردون باشا فى بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية مجموعة ٣ عدد ١ (مايو سنة ١٨٨٨) ص ٤٦ مع تسمية مديرية كبكبية باسم (كلكل) ويوافق التقسيم الوارد فى خريطة مسداليا بك ذاته عن السودان الملحقة بالكتاب الأزرق الانجليزى Blue Book سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٣٨

(٢) انظر الخريطة ص ٩٥

obeikandl.com

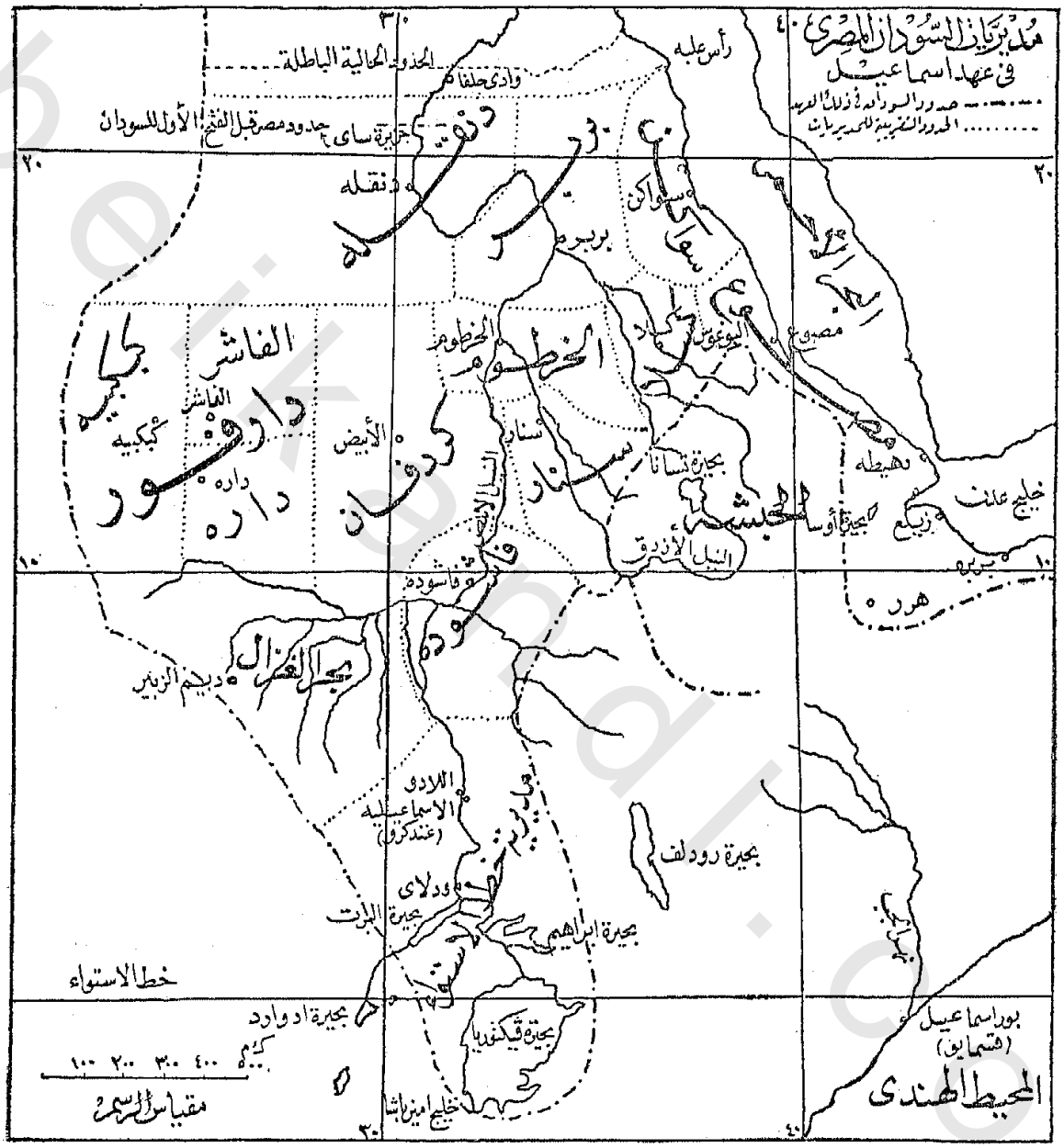

مديريات السودان فى عهد اسماعيل وأوائل عهد توفيق

(نقلا عن كتابنا عصر اسماعيل ج ١ ص ١٦٧)

تعيين محمد رؤوف باشا حكمداراً[١] للسودان

مارس سنة ١٨٨١

وخلفه محمد رؤوف باشا ، وهو آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة المهدية ، وكان حاكما ضعيفاً ، خلوا من الكفاية الحربية والإدارية ، وفى عهده ظهرت تلك الثورة التى قضت على نفوذ مصر فى السودان ، ومهدت للحكم الإنجليزى فى أرجائه ، وقد عينه الخديو توفيق باشا حكمداراً لعموم السودان وملحقاته ، ما عدا هرر وزيلع وبربره وتاجوره وسواحل البحر الأحمر من مصوع وسواكن وغيرها[٢] ، إذ كان لها محافظون ومديرون آخرون ، فكان محمد نادى باشا مديراً لعموم هرر وزيلع وبربره وتاجوره[٣] وعلى رضا باشا المهندس محافظاً لسواحل البحر الأحمر[٤] ، ويتبعه محافظتا سواكن ومصوع ، ثم جعل لكل منهما محافظ على حدة ، فجعل علاء الدين باشا محافظاً لمصوع ، وبقى وكيل محافظة سواكن يقوم بأعمال محافظتها .

وعهدت الحكومة إلى محافظ سواحل البحر الأحمر الإشراف على شؤون محافظاته ، ومحافظتى زيلع وبربره ، وأصدر إليه الخديو توفيق أمراً عالياً بذلك فى ٧ رجب سنة ١٢٩٧ (١٥ يونيه سنة ١٨٨٠) ، يدل على مبلغ اتساع أملاك مصر فى تلك الأصقاع (وقد نشرناه فى قسم الوثائق التاريخية)

وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٠ صدر أمر عال بجعل شرقى السودان جميعه ويشمل مديرية التاكة وسواكن ومصوع وسنهيت والقلابات وتوابعها إدارة قائمة بنفسها منفصلة عن حكمدارية السودان ، وأضيفت إليها محافظة عموم سواحل البحر الأحمر ، وعين علاء الدين باشا مديراً لعموم شرقى السودان[٥]

---

(١) حاكما عاما

(٢و٣) الوقائع المصرية عدد ٢٣ يناير سنة ١٨٨٠

(٤) الوقائع المصرية عدد ١١ ابريل سنة ١٨٨٠

(٥) الوقائع المصرية عدد أول ديسمبر سنة ١٨٨٠

وكانت الحكومة لا تفتأ توجه عنايتها إلى المديريات والمحافظات البعيدة عن مركز الدولة ، فمن ذلك الأمر العالى الصادر إلى محمد نادى باشا مدير عموم (هرر) فى ٩ ربيع الآخر سنة ١٢٩٧ (٣١ مارس سنة ١٨٨٠) ، وقد تضمن توجيه نظره إلى السهر على كل ما يكفل تقدم البلاد ورخاءها ، والمحافظة على كيانها (وقد نشرناه فى قسم الوثائق التاريخية)

وكانت مصر تنفق من ميزانيتها على السودان نحو ٣٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً [١] ، ولم تفتر عزيمتها عن بذل الجهود لترقية شؤونه ، فمن ذلك أنها أنشأت فى عهد الخديو توفيق باشا مدرسة طبية بالخرطوم لتعليم أبناء الأهلين الفنون الطبية [٢]

وأقيمت الحفلة السنوية لامتحان مدرسة الخرطوم برياسة محمد رؤوف باشا حكمدار السودان يوم ٢١ شعبان سنة ١٢٩٨ (يوليه سنة ١٨٨١) ، فكانت مظهراً حياً للعناية بالحضارة والتعليم فى السودان

الجيش المصرى بالسودان

وكان الجيش المصرى بالسودان وقت شبوب الثورة المهدية يبلغ ٣٢٦١٠ مقاتل [٣] ، موزعين فى المواقع الآتية :

هرر ٣٩٥٥ ، الجيرة ٥٠١ ، زيلع ٢٨٠ ، بربره ١٩٦٥ ، مصوع ٢٤٤٢ ، سواكن ١٨٠٠ ، على حدود الحبشة ٤٣٠٤ ، باقى نواحى السودان ١٩,٤٠٢ مرابطين فى المدن والمواقع الهامة كالخرطوم ، وأم درمان ، ودنقلة ، والدبة ، ومروى ، وبربر ، وسنكات ، وطوكر ، وسنهيت ، وأميديب ، وكسلا ، وقوز رجب ، وسوق أبوسن (القضارف) ، وأبو حراز ، وسنار ، والكوه ، والأبيض ، وباره ، والفاشر ، وفوجه ، وأم شنقه ، وكبكبيه ، وكلكل ، وفاشوده ،

---

(١) انجلترا فى مصر للورد الفريد ملنر ص ١٢٤

(٢) الوقائع المصرية عدد ١١ اغسطس سنة ١٨٧٩

(٣) إحصاء السير رجنلد ونجت باشا فى كتابه (المهدية والسودان) ص ٥١

ومشرع الرق ، وديم الزبير (أو ديم سليمان) ، ورمبك ، وشامبه ، وبور ، وأمادى ، واللادو ، ومكركه ، والدفلاى ، وودلاى ، وفويره[1]

ظهور الثورة المهدية سنة ١٨٨١ وأسبابها

ظهرت الثورة فى السودان سنة ١٨٨١ ، تلبية لدعوة محمد أحمد ، المشهور بالمهدى ، وهذه الدعوة لم تكن سوى السبب المباشر للثورة ، وقد سبقتها أسباب أخرى كانت بمثابة العوامل المهيأة لنجاحها ، وسنتناولها بالبحث والتحقيق قبل الكلام عن شخصية المهدى .

فأول هذه الأسباب مظالم الحكام ، وما عاناه الأهلون من العسف وفداحة الضرائب ، ويلزمنا أن نعترف بأن حكام السودان قبيل ظهور الثورة المهدية ، وحين ظهورها ، كانوا على جانب كبير من الظلم والجور ، لقد كانوا خليطاً من الترك والشراكسة ، أو من المصريين ، وكانوا كلهم سواء فى إرهاق الأهلين ، هذه حقيقة قد نشعر بالمرارة إذ نقررها ، ولكنها الحقيقة الواقعة التى لا يجوز أن نتجاهلها ، بل علينا أن نعترف بها ، وأن نستخلص العبرة منها ، فلو أن كل موظف مصرى يشعر بأن عليه واجباً قومياً لمنصبه وبلاده ، ويؤدى هذا الواجب بأمانة واستقامة ، لكان ذلك من عوامل عظمة مصر وسعادتها ، ولو أن الموظفين الذين تولوا حكم السودان قبيل ظهور الثورة كانوا مثالا للعدل والاستقامة والرغبة فى الإصلاح ، لسعد الشعب السودانى فى عهدهم ، ولما وجدت دعوة المهدى من يستمع إليها من الأهلين ، فهؤلاء الحكام يقع عليهم نصيب كبير من تبعة نشوب الثورة المهدية ، مما أدى إلى ضياع الأمبراطورية العظيمة التى بذلت مصر ما بذلت من الدماء والأرواح والأموال فى سبيل تأسيسها .

---

(١) المرجع السابق بالخريطة مقابل صحيفة ٥٢ ، وتجد هذه المواقع فى الخرائط المنشورة بكتابنا ص ٩٢، ٩٥

حقاً إن هذا الحكم لا يسرى على جميع حكام السودان ، فإن منهم من كان يرعى العدل وينصف المظلومين ، ولكن من الحق أن نعترف بأن العادلين من الحكام كانوا قِلَّة ، وأن غالبيتهم كانت تتخذ الوظائف وسيلة للرشوة والإثراء من طريق غير مشروع ، ولقد زاد فى ارتكاب المظالم أن السودان كان يعتبر منفى للحكام ، ولم تكن الحكومة ترسل إليه فى الغالب إلا الموظفين المغضوب عليهم ، فالموظف الذى يذهب إلى السودان وهو شاعر بأنه مبعد أو منفى ، لا ينتظر منه العدل والاستقامة فى عمله ، أضف إلى ذلك أن حكام مصر فى ذلك العصر لم يكونوا فى الغالب مثال العدل والصلاح ورعاية مصالح المحكومين ، بل إن مظالمهم كانت كذلك من أسباب الثورة العرابية [1] ، فكيف بهم إذا كانوا فى أقاصى السودان حيث لا رقيب عليهم ولا حسيب ؟ فالأهلون إذن كانوا هدفاً للظلم وسوء المعاملة ، يبتز منهم الحكام ما يقدرون عليه من المال ، ويرهقونهم بمختلف أنواع الضرائب والمغارم ، وهذا لا ينفى أن الحكم المصرى فى السودان قد بسط رواق الحضارة والعمران فى ربوعه مدى خمسين سنة متوالية ، كما فصلنا ذلك فى كتابنا عن (عصر اسماعيل) ، ولكننا نتكلم عن ناحية العدالة التى كان إغفالها من جانب الحكام المحليين سبباً من الأسباب الجوهرية لقيام الثورة المهدية ، وليست هذه الناحية أمراً هيناً ، بل هى من أعظم الأركان التى تشاد عليها عظمة الممالك ، وسعادة الشعوب ، وقديماً قالوا : (العدل أساس الملك) .

نعم إن حكومة المهدى وخليفته التعايشى التى قامت على أنقاض الحكم المصرى ، كانت مثال الظلم والقسوة ، وعنوان الفوضى والتأخر ، ولم يسعد السودان قط على يدها ، بل وقعت فى عهدها المظالم ، وتلاحقت المحن والخطوب . والأوبئة والمجاعات ، ولكن هذه المقارنة لا يجوز أن تصرفنا عن تقصى أسباب الثورة المهدية ، فمن الواجب أن نعترف بأن مظالم الحكام كان لها دخل كبير فى دفع الناس إلى الثورة .

---

(١) كما أوضحنا ذلك فى كتابنا (الثورة العرابية) ص ٦٦

وثمة سبب آخر يتصل بالحكم ، وهو تولية الحكومة بعض الأوروبيين كبرى المناصب فى السودان ، فإن هؤلاء الأجانب لم يكونوا صادقى النية نحو مصر ، بل كانوا يثيرون بأعمالهم ومظالمهم أيضاً روح الكراهية فى نفوس الشعب ، وقد انتهزوا أوامر الحكومة بمنع تجارة الرقيق ، فحاربوا هذه التجارة بكل عنف وقسوة ، مع علمهم أن هذه الحرب تثير كراهية فريق كبير من الأهلين ، وتدفعهم إلى مقاومة الحكومة .

ولقد كانت محاربة الاتجار بالرقيق فى ذاتها من أسباب نجاح الثورة المهدية ، وهذا السبب يبدو مناقضاً للسبب الأول ، لأنه مما لاشك فيه أن محاربة الرق هى من مستلزمات الحضارة والإنسانية ، ومن مقتضيات العدل والعمران ، إذ ليس من أنواع المظالم ماهو أشد همجية من اقتناص الأهلين الآمنين ، وتشريدهم فى الأقطار ، وبيعهم بيع السلع فى أسواق الرقيق ، وهكذا الثورات تحتوى فى بعض المواطن على شتى المتناقضات ، وكذلك كانت جهود الحكومة المصرية فى محاربة الاسترقاق من أسباب نجاح الثورة المهدية ، لأن تجار الرقيق كانوا يمثلون فى البلاد طبقة قوية من الأعيان والتجار ، فلما حرمت عليهم الحكومة ممارسة هذه التجارة التى كانت تدر عليهم الأرباح الوفيرة ، انقلبوا عليها ، وانضموا إلى الثائرين .

ويتصل بهذا السبب احتكار الحكومة تجارة العاج ، وهو من أهم مصادر الثروة فى السودان ، وقد وقع هذا الاحتكار فى عهد غوردون باشا ، فاستأثرت الحكومة بالأرباح الطائلة التى كانت تثمرها هذه التجارة على أربابها ، فنقموا من الحكومة هذا الاحتكار ، وسخطوا عليها ، وانضموا إلى الثورة بعد نشوبها ، قال الكولونل شايى لونج بك Chaillé Long bey فى هذا الصدد[1] : « إن أمر غوردون باحتكار محصول العاج قد أثار تجار السودان على الحكومة ، وهؤلاء التجار كانوا سادة السودان الحقيقيين ، فكان هذا العمل المنطوى على الظلم هو

(١) فى كتابه مصر ومديرياتها المفقودة ص ١٨٦

النواة الأولى للثورة المهدية ، وكانت إدارته فوضى ، وبالجملة فقد تولى حكم السودان والأمن واليسار يسودانه ، ولما غادره سنة ١٨٧٩ كان ينوء تحت أعباء الديون ، والثورة تتمخض فى أحشائه » .

أضف إلى ما تقدم سبباً آخر ، وهو جهل الأهلين ، وسرعة تصديقهم للخرافات والأوهام ، واعتقادهم من قبل بقرب ظهور المهدى المنتظر ، فأقبلوا على دعاوى محمد أحمد يصدقونها ويؤمنون بها ، دون تفكير ولا تحقيق .

وثمة سبب هام كان له أثر كبير فى نجاح الثورة ، وهو عجز قيادة الجيش المصرى فى السودان حين شبوبها ، فعلى رغم أن عدده كان يبلغ كما تقدم بيانه (ص ٩٧) اثنين وثلاثين ألف مقاتل ، موزعين بين مختلف المدن ، فإنه كانت تعوزه كفاية القيادة والنظام ، كما أن إدارة السودان كان يتولاها وقت ظهور المهدى حاكم من أضعف الحكام وأقلهم كفاية وشجاعة ، وهو محمد رؤوف باشا ، فكان وجوده من أكبر العوامل فى ظهور الثورة وانتصارها ، بل هو السبب المباشر لنجاحها الأول .

وزاد فى استفحال الثورة أنه لما استفاضت أنباؤها الأولى فى مصر ، لم يكترث لها العرابيون ، وكانوا وقتئذ أصحاب الحول والطول ، وامتنعوا عن إرسال المدد إلى السودان ، وأرادت وزارة شريف باشا (الثالثة) إرسال ألاى طره المعروف بالآلاى السودانى إلى السودان ، لتعزيز قوة الحكومة به ، ولكن عرابى وصحبه اعتقدوا أن الغرض من إرساله تفريق الجماعة العسكرية وإضعافها ، قال عرابى فى هذا الصدد : « إن القوة التى كانت موجودة فى جهات السودان كانت تكفى لحفظ النظام فيها ، وأنه لم يكن ثمة سبب يدعو إلى تعزيزها بالآلاى السودانى[1] » ، فلما سقطت وزارة شريف باشا فى فبراير سنة ١٨٨٢ ، وتألفت وزارة البارودى الموالية للعرابيين ، تغير مسلك الحكومة ، وصرفت النظر عن إرسال هذا المدد ، وهذا من أخطاء العرابيين ، ومرجع هذا الخطأ إلى أن عرابى وصحبه لم يكونوا يقدرون أهمية السودان الحيوية لمصر ، ولا كانوا

(١) مذكرات عرابى ص ٢٢٣

يعيرونه عناية جدية ، بل كانوا ينظرون إليه كمنفى للمغضوب عليهم ، ينبئك بذلك أنه حين أمر عرابى بمحاكمة الضباط الشراكسة المتهمين بالائتمار به (ابريل سنة ١٨٨٢) كان عقابهم النفى إلى أقاصى السودان !!

وهناك سبب سياسى لاستفحال الثورة المهدية ، يرجع إلى مطامع الإنجليز الاستعمارية ، ذلك أن الاحتلال أضعف هيبة الحكومة المصرية ، وجعلها خاضعة للسياسة البريطانية ، وكان مما بادر إليه فى أعقاب اخماد الثورة العرابية إلغاء الجيش الوطنى ، كما تقدم بيانه ، وتجريد البلاد من قوتها الحربية والبحرية مما ترامى صداه فى نواحى السودان ، فأغرى بها الثائرين ، وقد حالت انجلترا دون كبح جماح الثورة المهدية ، وأكرهت الحكومة المصرية على إخلاء السودان بحجة عجزها عن إخمادها ، على حين إنها كانت تستطيع ، لو تركت وشأنها ، أن تقضى على محمد أحمد وثورته .

ومما لا مراء فيه أن سياسة انجلترا عقب الاحتلال كانت ترمى إلى بث الفوضى وإثارة الفتنة فى السودان ، لكى تتخذ من الثورة ذريعة لتسويغ بقائها فى مصر ، ولكى تضعف من شوكة مصر من ناحية أخرى ، فلا تقوى على استرداد استقلالها ، وليس أفعل فى إضعاف شوكتها من شبوب الثورة فى السودان ، وتغلبها على قوات الحكومة فيه ، من أجل ذلك كانت انجلترا تنظر بعين الغبطة إلى امتداد تيار الثورة المهدية ، ومن أجل ذلك أيضا عارضت رغبة الحكومة المصرية فى وقف تيار هذه الثورة ، ولما رأت عبد القادر باشا حلمى حكمدار السودان فى أوائل عهد الاحتلال قد نجح فى التنكيل بالثائرين وإعادة سطوة الحكومة المصرية ، عملت على إقصائه عن منصبه ، لتعود الثورة سيرتها الأولى ، فالسياسة الانجليزية هى ولا شك من أهم الأسباب التى ساعدت على استفحال ثورة المهدى ، تحقيقاً لمطامعها الاستعمارية .

التوافق الزمنى

بين الثورة العرابية والثورة المهدية

من الحقائق التى تلفت النظر أن الثورة المهدية والثورة العرابية ظهرتا فى أوقات متقاربة ، وقد كان هذا التقارب باعثاً لبعض المؤرخين إلى الظن بأن يد انجلترا هى التى دبرت الثورتين فى وقت واحد ، لكى تستفيد منهما ، فقد كانت الثورة العرابية ذريعة لاحتلال مصر ، كما كانت الثورة المهدية فرصة اغتنمتها لفصل السودان عن مصر ، ثم الاستئثار به من بعد ، على أن هذا الظن ليس له ظل من الواقع ، أما ان انجلترا استفادت من كلتا الثورتين لتحقيق مطامعها الاستعمارية ، فهذا أمر مقطوع بصحته ، ولكنها لا دخل لها فى ظهور الثورة العرابية ، ولا الثورة المهدية ، فكلتاهما ظهرت للأسباب التى فصلناها آنفاً[١] ، على أن يد انجلترا كان لها أثرها فى تطور حوادث الثورتين ، فمما لا شك فيه أنها منعت إخماد ثورة المهدى قبل استفحالها ، وقد كان ذلك حين احتلت مصر وتسلطت على الحكومة المصرية .

على أنه لا يسعنا فى الجملة إلا القول بأن الثورة العرابية كانت من أسباب نجاح ثورة المهدى ، لأن الحكومة المصرية فى عهد الثورة لم يتسن لها التفرغ لكبح جماح المهدى ، فضلا عن معارضة العرابيين فى إرسال المدد إلى السودان كما تقدم بيانه ، فكان ذلك سبباً لاستفحال الثورة المهدية ، وقد كان المهدى يعطف على عرابى ، على غير سابق صلة بينهما ، ولعل قيام عرابى ضد الحكومة المصرية قد صادف هوى فى نفسه ، مما شجعه على تقليده ، وجعله موضع عطفه وتقديره ، ومما يؤثر عنه أنه حين هاجم الخرطوم سنة ١٨٨٥ أصدر أمره بالمحافظة على حياة غردون قائلا : « إنى أريد أن أفتدى به أحمد عرابى باشا[٢] » ،

---

(١) راجع أسباب ظهور ثورة العرابية فى كتابنا (الثورة العرابية) ص ٦٢ وما بعدها .

(٢) السودان بين يدى غردون وكتشنر لابراهيم فوزى باشا ج ١ ص ٣٩٨

ومهما يكن من موقف العرابيين فإن الإحتلال الإنجليزى هو المسئول الأول عن إغراء المهدى وأشياعه بسلطة الحكومة ، ومنعها من إخماد الثورة المهدية .

شخصية المهدى

والآن يجمل بنا أن نتكلم عن شخصية الرجل الذى استطاع أن يثير السودان ، ويجمع حوله الأنصار والأشياع من سكانه ، ويتزعم الثورة ، ويتغلب على قوات الحكومة فى أرجائه ، ويؤسس فيه دولة كان لها شأن كبير فى تطور الحوادث فى مصر والسودان .

ولد محمد احمد فى ٢٧ رجب سنة ١٢٦٠ هـ [1] (١٢ اغسطس سنة ١٨٤٤ م)

---

(١) هذا التاريخ عن خطاب ورد لى من سعادة السيد عبد الرحمن باشا المهدى بتاريخ ١٧ ابريل سنة ١٩٣٩ ردا على خطابى إليه فى الاستفسار عن بعض نقط مختلف عليها تتعلق بتاريخ والده المرحوم المهدى (صاحب الترجمة) ، ذلك أن نعوم بك شقير يقول فى كتابه عن السودان إنه ولد سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٣ م) بجزيرة (ضرار) ، ويقول ابراهيم باشا فوزى فى كتابه (السودان بين يدى غردون وكتشنر) إنه ولد سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) فى جزيرة (الخناق) الواقعة جنوبى مدينة (العرضى) قاعدة إقليم دنقلة ، وإزاء هذا الخلاف فى التاريخ والمكان رجعت إلى السيد عبد الرحمن باشا المهدى ، فتفضل بموافاتى بالحقيقة ، التى هو أدرى بها من سواه ، ومن خطابه يتبين أن التاريخ الصحيح لميلاد المهدى هو ٢٧ رجب سنة ١٢٦٠ (١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤ م)

أما مدينة (العرضى) فهى بذاتها مدينة دنقلة قاعدة مديرية دنقلة ، وكلمة (عُرضى) مأخوذة من الكلمة التركية (أوردو) أى الجيش ، وقد سميت دنقلة (العرضى) لأنها كانت مقراً للجيش ، وأما الجزيرة التى ولد بها المهدى فهى جزيرة (لبب) ، لاجزيرة (ضرار) ، والجزيرتان واقعتان جنوبى مدينة دنقلة ، ويفصل بينهما خور ، ويطلق على جزيرة (لبب) اسم (الأشراف) نسبة إلى الأشراف من أسلاف المهدى ، فكلا الاسمين يطلق على جزيرة لبب ، وكلاهما اسم لها ، وليست هى جزيرة (ضرار) ، ولا هى أيضاً جزيرة (الخناق)

أما (الخناق) فهو اسم يطلق على المنطقة التى يقطنها الأشراف منذ أن نزحوا إلى السودان واستوطنوا دنقلة ، وهى فى الأصل قرية من قرى مديرية أسوان واقعة شمالى المديرية بين أسوان ودراو ، وكان يسكنها الأشراف ومنهم أسلاف المهدى قبل هجرتهم إلى دنقلة ، فلما نزلوا إلى مكانهم بدنقلة أطلقوا عليه اسم (الخناق) وطنهم الأصلى بمديرية أسوان ، فالخناق إذن اسم يطلق على جميع المنطقة التى استوطنها الأشراف ، وهى تشمل جزيرة (لبب) وجزيرة (ضرار) وغيرها من الجزر والقرى الواقعة فى تلك المنطقة

ويتبين مما تقدم أن المهدى من أصل مصرى ، وأن موطن أسلافه فى مديرية أسوان

بجزيرة (لبب) ، التى تبعد عن مدينة (دنقلة) جنوباً بخمسة عشر كيلو متراً ، وهو من سلالة عربية ، وكان أبوه نجاراً ، مرن على بناء السفن ، ثم ضاق به العيش فى دنقلة ، فانتقل وأفراد عائلته إلى (كرى)[١] ، ومحمد احمد لا يزال طفلا ، واشتغل هناك بصناعته ، وتلقاها عنه أولاده ، على أن محمد احمد قد مال منذ صباه إلى العلم والتفقه فى الدين ، فحفظ القرآن فى كتّاب بالقرب من كرى ، ثم تلقى بعض العلوم الدينية ، ومالت نفسه إلى التصوف ، وأخذ تعاليمها عن أستاذ له يدعى الشيخ محمد الشريف نور الدائم ، من خيار العلماء ، فقربه وميزه على سائر تلاميذه ، لما رأى منه التقشف والزهد .

وفى سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٧١ م) رحل إخوته إلى جزيرة (آبا)[٢] ، لكثرة أشجارها الصالحة لصنع المراكب ، فرحل معهم المترجم ، وكان قد تفقه فى الدين ، وبلغ من العمر السادسة والعشرين ، فبنى بالجزيرة مسجداً للصلاة ، وخلوة للتدريس ، وأقبل عليه سكان الجزيرة ، يأخذون عليه العهود ، وتتلمذ عليه بعضهم ، فلم يمض على مقامه بها إلا القليل ، حتى ذاع صيته فى النواحى المجاورة ، ولما كثر أتباعه ومريدوه ، واعتقد أنه المهدى المنتظر ، اعتزم أن ينادى بدعوته ، فأسرها أولا فى نفسه ، ثم أفضى بها إلى أستاذه الشيخ محمد شريف ، فنهاه عنها ، ولكنه لم ينته ، ولم يسمع له نصحاً ، ورأى أستاذه إصراره على دعواه ، فجمع مجلساً فى (آبا) من الأعيان ، وأمره بحضورهم أن يرجع عن غيه ، فخرج محمد احمد من المجلس لمشاورة من معه من الأصحاب ، فلم يرجع ، ونصح الشيخ شريف إلى قائمقام « الكوة » بالقبض عليه وزجه فى السجن ، لكى لا يستفحل أمره ، فلم يفعل ، ولو عمل برأيه لأخمد الثورة وهى فى مهدها

وفى شعبان سنة ١٢٩٧ هـ[٣] (يوليه سنة ١٨٨٠ م) أسرّ دعوته إلى خاصة

---

(١) شمالى أم درمان وعلى بعد ستة أميال منها

(٢) بالنيل الأبيض وتبعد عن الخرطوم جنوبا بمائة وخمسين ميلا

(٣) هذا التاريخ أيضاً عن خطاب السيد عبد الرحمن المهدى باشا المتقدم ذكره

تلاميذه ومريديه ، وفى مقدمتهم عبد الله التعايشى ، خليفته من بعده .

وفى شعبان سنة ١٢٩٨ هـ (مايو — يونيه سنة ١٨٨١ م) أخذ يذيع دعوته جهراً ، فكتب إلى المشايخ من مريديه وأصدقائه أنه رأى النبى الكريم عليه الصلاة والسلام فى المنام ، وأنه عهد إليه إحياء الإسلام ، ودعاهم إلى الحضور إليه فى (آبا) .

وكان ممن أرسل إليهم كتبه الشيخ محمد صالح من علماء دنقلة ، فبعث بكتابه إلى محمد رؤوف باشا حكمدار السودان ، وكان هذا قد بلغه نبأ دعوته من الشيخ محمد شريف ، إذ نبهه إلى نية محمد احمد ، ولكن رؤوف باشا أهمل الأمر ، وعزا تبليغ الشيخ محمد شريف إلى منافسة بينهما ، فلما ترامى إليه نبأ الكتب والمنشورات التى أذاعها المهدى فى مختلف النواحى ، بعث إليه بكتاب يسأله عما نسب إليه ، فأجابه محمد احمد بأن هذه المنشورات صدرت عنه حقاً ، وأنه المهدى المنتظر ، فأرسل إليه أحد معاونيه محمد بك أبو السعود العقاد يدعوه إلى الحضور إلى الخرطوم ، فجاءه أبو السعود ، وطالب إليه أن يذهب معه إلى الخرطوم ، ليبرئ نفسه لدى رؤوف باشا ، فرفض المهدى دعوته ، وأغلظ له فى القول ، فعاد العقاد إلى الخرطوم ، وأبلغ رؤوف باشا بما رأى وما سمع ، واعتزم المهدى تأييد دعوته بالقوة ، وأخذ يستعد لمقاومة الحكومة ومن ثم بدأت وقائع الثورة .

وقائع الثورة المهدية

واقعة آبا — ١٢ اغسطس سنة ١٨٨١

جرد رؤوف باشا كتيبة من مائتى جندى إلى جزيرة (آبا) بقيادة أبى السعود العقاد ، ليأتوا له بالمهدى سجيناً ، ولكن محمد احمد كان متيقظاً ، فأعد رجاله وأنصاره (وكانوا يسمون الدراويش) للقتال ، فما ان نزل الجند من الباخرة التى أقلتهم وبلغوا القرية ، حتى انقض عليهم رجال المهدى ، وفتكوا بهم جميعاً ، أما أبو السعود فلم يكن غادر الباخرة خوفاً على نفسه ، فلما علم بما

حلّ بالجند أقلع عائداً إلى الخرطوم ، وأنهى إلى رؤوف باشا ما فعله المهدى برجاله .

وتسمى هذه الواقعة واقعة (آبا) ، وهى أول معركة انتصر فيها المهدى .

أبرق رؤوف باشا إلى المعية الخديوية بمصر ، ينبئها بقيام محمد أحمد وادعائه المهدية ، وما حل بالجند من القتل فى واقعة آبا ، وعزا الهزيمة إلى أنهم أبوا إطاعة رئيسهم وامتنعوا عن إطلاق النار على الدراويش ، محتجين بأنه لا يصح قتال أمثال أولئك الفقراء ، فنتج من ذلك الإحجام أن هجم الدراويش على الجند وقتلوا منهم ١٢٠ جندياً وستة من الضباط[1] ، وقد أرسلت المعية إلى رؤوف باشا تستحثه على وجوب قمع حركة مدعى المهدية ، وبذل الهمة فى سبيل القبض عليه ، وكان ذلك فى أواخر عهد وزارة رياض باشا الأولى وابتداء تضعضع سلطة الحكومة بسبب قيام الثورة العرابية .

فجرّد رؤوف باشا تجريدة ثانية إلى (آبا) لتأديب المهدى ، فلما علم هذا بنبأ هذه الحملة غادر (آبا) ، ورحل إلى جبل (قدير) ، شمالى فاشودة ، وجنوبى كردفان ، ليكون بمأمن من حملات الحكومة .

واقعة راشد

٩ ديسمبر سنة ١٨٨١

وإذ حل المهدى بجبل (قدير) ، علم بأمره راشد بك أيمن مدير فاشودة ، فاعتزم السير إليه فى جيشه ، للقبض عليه ، ولكنه أخطأ أيضاً فى تقدير قوة المهدى ، ولم يأخذ الأمر عدته ، فكمن له محمد أحمد ورجاله فى الطريق ، وانقضوا عليهم ، فصمد راشد بك ومن معه للقتال ، ولكن جموع المهدى تكاثرت عليهم ، فقتل راشد بك ونحو ١٤٠٠ من رجاله ، وغنم المهدى جميع أسلحة الحملة وذخائرها ، وكان ذلك يوم ٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، وقد عرفت

---

(١) الوقائع المصرية عدد ٢٤ اغسطس سنة ١٨٨١

هذه الواقعة بواقعة (راشد) ، وهى أول الوقائع الكبيرة التى مكنت للمهدى فى البلاد .

تعيين عبد القادر باشا حلمى حكمدارا للسودان

ارتاع رؤوف باشا من هذه الواقعة ، وأرسل إلى مصر يطلب المدد ، وكان ذلك فى عهد وزارة شريف باشا الثالثة ، فأعد شريف ألايا من الجند لإرساله مدداً إلى السودان ، ولكن سقوط وزارته فى فبراير سنة ١٨٨٢ أدى إلى تغيير مسلك الحكومة حيال ثورة المهدى ، فإن وزارة البارودى رأت العدول عن إرسال المدد ، بحجة أن الحالة لا تستدعى إرساله ، والواقع أنها أرادت التقرب إلى العرابيين ، إذ لم يكن يرضيهم سفر أى جماعة من الجند والضباط إلى السودان ، لما فى ذلك من إضعاف قوة الجيش بحسب زعمهم ، فضلا عما فيه من المشقة لهم ، وقد كان دأبهم تحسين حالة الضباط والجند والترفيه عليهم ، فاكتفت وزارة البارودى بتعيين عبد القادر باشا حلمى ناظراً وحكمداراً للسودان ، بعد أن عزلت رؤوف باشا ، فبرح هذا الخرطوم فى أوائل مارس سنة ١٨٨٢ .

وقد تأخر سفر عبد القادر باشا من مصر ، فلم يصل إلى الخرطوم إلا يوم ١١ مايو سنة ١٨٨٢ .

هزيمة الشلالى

٢٩ مايو سنة ١٨٨٢

وفى غضون ذلك كان يتولى الأعمال جيكلر باشا Giegler النمسوى رئيس مصلحة التلغرافات السودانية ، بالنيابة عن الحكمدار ، فجرد حملة بقيادة يوسف باشا الشلالى مؤلفة من نحو أربعة آلاف مقاتل ، فسارت من (الكوة) فى منتصف مايو ، قاصدة (جبل قدير) من طريق فاشودة ، فعلم المهدى بزحفها وأعد العدة لقتالها ، فلما اقتربت من معقله انقض عليها بجموعه الحاشدة يوم

٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ ، وكان يبلغ عددهم نحو خمسة عشر ألفاً ، وباغتوا الجند ليلا وهم نيام ، فأوقعوا بهم وفتكوا بهم فتكا ذريعاً ، وقتل يوسف باشا الشلالى فى هذه الواقعة التى سميت باسمه ، وغنم المهدى أسلحة الجيش وذخائره ، فازداد بها قوة ، وذاعت سطوته فى مختلف الأرجاء ، وخاصة فى كردفان ، وتضعضعت هيبة الحكومة ، وصدّق الأهلون دعوة محمد أحمد ، بعد هذه الانتصارات المتوالية ، وقد وقعت هذه الواقعة فى أوائل عهد عبد القادر باشا حلمى ، ولكنه ليس مسئولا عنها ، لأنها جهزت قبل مجيئه إلى الخرطوم ، إذ كان يتولى شؤون الحكمدارية جيكلر باشا وكيل الحكمدارية .

وان المرء لتأخذه الدهشة من هزيمة قوات الحكومة أمام المهدى ورجاله ، فى الوقائع السالفة وما تلاها ، فإن الجيش المصرى هو هو الذى فتح النيل الأبيض وكردفان ودارفور وبحر الغزال وخط الاستواء ، ودان له السودان من أدناه إلى أقصاه ، مدة ستين سنة متوالية ، فكيف به ينهزم أمام شراذم مجردة من السلاح والنظام ؟ إن هذا حقا يدعو إلى العجب ، ولكن سوء إدارة الحكام ، وتعاقب المديرين ، وعدم كفايتهم ، وقلة إخلاصهم ، وافتقار الجيش إلى قواد أكفاء ، كل ذلك كان له أثره فى اختلال نظام الجند وانهزامهم أمام جموع المهدى ، ثم إن شخصية المهدى كان لها بلا مراء أثر كبير فى انتصار جموعه ، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة ، ولولا ذلك لما استطاع أن يجمع حوله الأنصار والأعوان . ويبعث فيهم روح الطاعة لأوامره ، والاستخفاف بالموت فى سبيل تأييد دعوته ، ولقد كان لمزاياه الشخصية ، وما عرف عنه من الزهد والصلاح والتقوى ، وإيمانه بدعوته ، وذكائه وحزمه ، كل أولئك كان له أثره فى نجاحه وانتصاره على قوات الحكومة .

سقوط باره والأبيّض

يناير سنة ١٨٨٣

اضطرب حبل الأمن فى كردفان ، واستفحلت فيها سلطة المهدى ، وامتد نفوذه ، وكثر أشياعه بعد انتصاره فى واقعتى راشد والشلالى ، فزحف على (الأبيّض) عاصمة كردفان ، وكان عليها وقتئذ اللواء محمد سعيد باشا مديراً وحكمداراً لغربى السودان ، وفيها من الجند نحو ستة آلاف مقاتل ، فهاجمها المهدى بجموعه وعددهم نحو خمسين ألف مقاتل يوم ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، ووقعت فى ذلك اليوم معركة كبيرة انتهت بهزيمة الثوار وارتدادهم عن المدينة ، بعد أن فتكت بهم نيران البنادق والمدافع ، وقتل منهم عدة آلاف ، وكان من القتلى شقيق المهدى وشقيق عبد الله التعايشى ، وانسحب المهدى يجر أذيال الهزيمة ، ولو تعقبه سعيد باشا وقتئذ لأمكنه القضاء عليه ولأخمد الثورة وأنقذ البلاد من عواقبها الوخيمة ، ولكنه تردد وخشى الخروج من المدنية ، فما لبث المهدى حتى استجمّ قوته ، واستعد للزحف .

وفى غضون ذلك حاصر الدراويش (باره) إحدى المواقع الهامة فى كردفان ، وكان بها حامية من الجند ، وشددوا عليها الحصار حتى سلمت وسقطت فى ٥ يناير سنة ١٨٨٣ .

ثم استأنف المهدى حصار (الأبيض) ، وسدّ عليها المسالك ، فاشتد الضيق والجوع بالحامية العسكرية ومن بقى فيها من الأهالين ، وفتكت بهم الأمراض ، فعقد سعيد باشا مجلساً عسكرياً من ضباط الحامية للتشاور فى الموقف ، فاستقر رأيهم على التسليم ، بعد أن نفدت قواهم ، فسلموا للمهدى بعد أن وعدهم بالمحافظة على حياتهم ، ودخل المدينة يوم ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ دخول الظافر ، وغنم كل ما كان لدى الحامية من الأسلحة والبنادق والذخائر ، وضمها إلى ما غنمه فى واقعتى راشد والشلالى ، فاجتمع عنده ١٦٤٠٠ بندقية وثلاثة عشر مدفعاً والمقادير الجمة من الذخائر .

ولما استقر المهدى فى الأبيض استراب بسعيد باشا وسائر الضباط الذين

سلموا معه ، فبالغ فى إذلالهم وتعذيبهم بحجة إكراههم على إظهار أموالهم المخبأة ، وكان سعيد باشا يقابل مظالمهم بالإنفة والإباء ، ثم أمر المهدى بقتلهم فقتلوا جميعاً .

أعمال عبد القادر باشا حلمى

وصل عبد القادر باشا حلمى إلى الخرطوم يوم ١١ مايو سنة ١٨٨٢ كما أسلفنا ، فأدرك خطورة الثورة ، وأرسل يطلب المدد من مصر ، ولكن مصر كانت مسرحاً لكوارث سنة ١٨٨٢ التى انتهت بهزيمة الجيش المصرى فى التل الكبير ، واحتلال الإنجليز القاهرة ، وانحلال الجيش وسيطرة الإنجليز على سياسة الحكومة ، فصمت آذانها عن طلبات عبد القادر باشا ، على أن هذا القائد الباسل والحاكم الحازم نظم القوات التى كانت تحت تصرفه فى السودان ، وأحيا هيبة الحكومة ، بما تذرع به من الحزم والعزم ، فقد وجد الخرطوم عند وصوله فى غير منعة ، إذ لم يكن بها سوى عدد قليل من الجند مخيما فى ظاهرها ، دون حصون أو متاريس ، فشرع لفوره فى حفر خندق يصل النيل الأزرق بالنيل الأبيض ، وأقام المعاقل ، وركب بها المدافع ، وزاد من عدد الجند ، بأن جند من العساكر المتطوعة تسعة آلاف مقاتل ، وسلحهم بخمسة آلاف بندقية أحضرها معه من مصر ، وأخذ يتولى تمرينهم على الحركات العسكرية بنفسه ، واستدعى ست أورط من الجنود النظامية من السودان الشرقى ، فصارت الخرطوم فى غاية من المنعة ، واطمأن أهلوها ، بعد أن كانوا يتوقعون هجوم الثوار عليها ، وحصن سنار وجعلها بمنجاة من الغزو ، واستطاع بذلك كله أن يقاوم الثورة سنة كاملة .

وقد سقطت الأبيّض فى الوقت الذى كان يكافح فيه الثوار على النيل الأزرق ، وعلم بنبأ سقوطها وهو فى طريقه إلى سنار ، بعد أن نكل بالثوار ، كما سيجىء بيانه ، وبذل جهد المستطاع لإنقاذها ، وأرسل إليها الأورطة تلو الأورطة ، ولكنها لم تقو على إنقاذها ، فأرسل يستعجل المدد من مصر ، فتركته

الحكومة وشأنه ، وطلب أن ترسل إليه قليلا من المال لأداء مرتبات الضباط والجند ، فلم تكترث له ، وكان من عواقب إهمال طلباته سقوط الأبيض ، قال ابراهيم باشا فوزى فى هذا الصدد : « وقد بلغنى أن عبد القادر باشا بعث يسترحم الحكومة فى إرسال ثلاثين ألف جنيه لصرف تلك المرتبات ، وقال انه لا يليق بنا أن نسوق الجند وضباطهم إلى مواطن الموت وأولادهم ونساؤهم يتضورون جوعاً فلم يلتفت إلى قوله حتى أنه كان يسأل الحكومة المكافآت بالرتب والنياشين لكثير من الضباط ، فتقابل مطالبه بالرفض والإباء[١] » .

واقعة معتوق

يناير سنة ١٨٨٣

وكانت الحرب سجالا بين قوات الحكومة وجموع الثوار ، فاعتزم عبد القادر باشا الخروج إليهم بنفسه ، فخرج من الخرطوم فى يناير سنة ١٨٨٣ يقود قوة من الجند ، والتقى بالثوار فى غابة قرب (معتوق) ، فأوقع بهم ، وفاز عليهم فوزاً مبيناً[٢] .

واقعة مشرع الداعى

٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣

وجاء بجيشه إلى (الكوه) وعاد إلى الخرطوم ، ثم استأنف القتال ، فنزل من الخرطوم بطريق النيل الأزرق حتى وصل إلى (ود مدنى) ، وسار على رأس جيشه حتى التقى بجموع الثوار فى مشرع الداعى (شمالى سنار) ، فشبت الحرب بينهما فى موقعة كبيرة دامت أكثر من ثلاث ساعات ، قتل فيها من الثوار نحو ألف رجل ، وأصيب عبد القادر باشا أثناء القتال برصاصة فى جنبه حطمت ساعته ، ولكن لم يلحقه سوء ، وانتهت الواقعة بتشتيت شمل الثوار ، ودخل عبد القادر باشا سنار ، فوطد الأمن فيها ، وأعاد هيبة الحكومة ،

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر ج ١ ص ١١٩

(٢) السودان لنعوم بك شقير ص ١٤٩

وطارد العصاة بالقرب من (الرصيرص) وأوقع بهم وشتت شملهم

وبذلك أخمد عبد القادر باشا الثورة فى سنار والجزيرة كلها (الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض) ونكل بالثوار ، وملأ قلوبهم رعباً ، فانكمشوا أمام هيبته وسطوته ، وضيق على المهدى المسالك ، وشعر المهدى بخطره ، فكان يدعو الله هو وأصحابه عقب كل صلاة بقوله : « اللهم ياقوى ياقادر ، اكفنا عبد القادر »

ولو بقى فى منصبه لقضى على الثورة المهدية القضاء الأخير ، قال فى هذا الصدد تاجر كبير من تجار السودان عرفه وتحدث عنه[1] : « إن له مكانة يعز على سواه منالها ، وهو ذو الفضل بما أجراه مدة ولايته ، وقد كان معززاً محبوباً من الجميع ، فإنه أنقذ سنار بقليل من العساكر ، وأذل الثائرين ممن كانوا فى جوار الخرطوم وسنار ، ولو لم يترك وظيفته لتمكن بدون ريب من تدويخ القبائل الثائرة ، واسترجع الأبيض ودارفور ، فإن مهابة سطوته خرقت الصحارى المقفرة ، وأوقعت الرعب فى قلوب القبائل ، وإن استبداله سهل للمهدى سبيل الفوز ، وأوصله للفتك بجيش هيكس »

وقال اللواء (خشم الموس) باشا أحد القواد السودانيين بالجيش المصرى فى حديث له بعد سقوط الخرطوم : « لم يستفحل أمر الثورة إلا بعد استبدال عبد القادر باشا حلمى ، ولو لم يقع ذلك لما كان لها شأن يذكر ، فإنه تمكن بالقوة الضعيفة التى كانت لديه من إلقاء الرعب فى قلوب سكان الجزيرة ، وإننى لا أقوى على تعداد الأغلاط التى ارتكبت من يوم مبارحته السودان[2] »

خطة عبد القادر باشا حلمى فى محاربة المهدى

كانت خطة عبد القادر باشا حلمى فى محاربة الثورة أن يستمر مرابطاً بجيشه ومدافعه وأسطول البواخر النيلية على طول مجرى النيل الأبيض ، بعد

---

(١) فى حديث له نشر (بالأهرام) عدد ٢٤ يناير سنة ١٨٨٤ عقب كارثة شيكان التى وقعت بعد استدعاء عبد القادر باشا حلمى

(٢) الأهرام عدد ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٥

أن نكل بالثوار فى الجزيرة ، وأن يترك المهدى مؤقتاً فى كردفان ، ولا يهاجمه فيها ، فيبقى محصوراً فى بيداء قاحلة ، ولا يلبث مع الزمن أن تنبدد قوته . إذ لا تجد جموعه ما يكفى لمؤونتهم وميرتهم ، وكان يرى بثاقب نظره أن مهاجمه المهدى فى كردفان أمر لا تحمد مغبته ، لبعد المسافات التى يضطر الجيش إلى قطعها وابتعاده عن النيل ، فيستهدف لقطع خط الرجعة عليه من الأعداء ، ولكن سارت الأمور على غير ما رأى ، وفى ذلك يقول ابراهيم باشا فوزى : « ولو اتبعت الحكومة مشورة عبد القادر باشا وعدلت عن إرسال حملة هيكس لكانت النتيجة مرضية وقاضية على المهدية فى كردفان ، ولكن سبق السيف العذل »[١]

وقد ألح فى طلب المدد من مصر ، ليتمكن من القضاء على الثورة ، ولكن الحكومة أعرضت عنه إعراضا تاماً ، ثم فصلته عن منصبه ، فمهدت السبيل إلى إضاعة السودان .

تدبير السياسة الإنجليزية

واستدعاء عبد القادر باشا حلمى

خشيت الحكومة البريطانية إذا ترك عبد القادر باشا وشأنه فى السودان أن يتغلب على الثورة المهدية ويخمدها ويثبت سلطة مصر فى الأقطار السودانية ، وهذا يخالف أطماعها ، لأنها إنما تريد إكراه الحكومة المصرية على إخلاء السودان ، بحجة عجزها عن الاحتفاظ به ، ثم فتحه من جديد لحسابها بالاشتراك مع مصر ، والاستئثار بحكمه ، وقد وجدت السياسة الإنجليزية فى همة عبد القادر باشا حلمى وكفايته مايحبط خطتها ، فأوعزت إلى الخديو توفيق باشا أن يأمر باستدعائه ، ولم يكن توفيق باشا يرد للإنجليز طلباً ، فأمر باستدعائه ، وأصدر أمره فى ٢٠ يناير سنة ١٨٨٣ بإلغاء نظارة السودان ، وتعيين

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر ج ١ ص ١٤٢

علاء الدين باشا حكمداراً لعموم السودان وملحقاته[١] ، وكان قبل تعيينه حكمداراً لشرقى السودان تحت إمرة عبد القادر باشا حلمى ، ولم تخطر الحكومة عبد القادر باشا بهذا التعيين ، فكان يكافح الثوار ويوقع بهم ، فى الوقت الذى أصدرت الحكومة قرارها باستدعائه وتعيين من يخلفه ، فبارح الخرطوم فى أواخر ابريل سنة ١٨٨٣ ، فى وقت كان السودان أحوج ما يكون إلى همته وحزمه[٢] .

وقد قوبل نبأ استدعائه بالاستياء الشديد والجزع فى السودان ، وفى ذلك يقول ابراهيم باشا فوزى : « فى شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٠ إثر انتصارات عبد القادر باشا على دعاة المهدى فى جنوب سنار صدر أمر عال بفصله عن حكمدارية السودان وإلغاء نظارة السودان ، وإنشاء قلم مخصوص بنظارة المالية لمراقبة حسابات السودان ، وقد وقع نبأ فصله أسوأ وقع عند أهالى الخرطوم وسائر مستخدمى الحكومة ، والأعراب الموالين لها ، ورفعوا العرائض تباعا إلى المغفور له الخديو توفيق باشا يسألونه العدول عن هذا الأمر ، فلم يفعل ، ولم يكن هذا الاسترحام قاصراً على من ذكرناهم ، بل تناول النزلاء الأوروبيين ، وقناصلهم ، فإنهم اشتركوا فى هذا الالتماس ، لأن الكل موقنون بأن الطريقة التى اتبعها عبد القادر باشا كانت هى السبب الوحيد فى نجاة الخرطوم وسنار ، والجزيرة كلها ، وكان من وراء أعماله ما قنط المهدى من التغلب على الخرطوم وأصدر منشورات لكل دعاته فى الجزيرة يأمرهم بكتمان الدعوة ما دام عبد القادر باشا حاكما على السودان[٣] » .

وقد تظاهرت الحكومة بإرسال المدد الذى طالما طلبه عبد القادر باشا قبل استدعائه ، ولو كانت مخلصة فى عملها لأبقته فى منصبه ، وأرسلت إليه المدد

---

(١) الوقائع المصرية عدد ٢٨ مارس سنة ١٨٨٣

(٢) توفى عبد القادر حلمى باشا بحلوان فى ٢٢ يوليه سنة ١٩٠٨

(٣) السودان بين يدى غردون وكتشنر ج ١ ص ١٣١

المطلوب ، ولكن السياسة الإنجليزية كانت فى الواقع ترمى إلى غرضين وهما : العمل على زيادة الفوضى فى السودان ، ثم التخلص من بقية جيش العرابيين ، وإبعاده عن مصر ، فقد تقدم القول بأن الحكومة ألغت جيش عرابى عقب الاحتلال ، ثم قررت إرسال مدد إلى السودان ، فجمعته من فلول هذا الجيش وبلغ عدده نحو ثلاثة عشر ألف مقاتل ؛ وهم الذين فنى معظمهم فى واقعة (شيكان) ، كما سيجىء بيانه .

خلفاء عبد القادر باشا حلمى

كان علاء الدين باشا آخر الحكمدارين الذين عينتهم الحكومة المصرية قبل إخلاء السودان ، ولم يكن على شىء من كفاية عبد القادر باشا حلمى وهمته ، وعينت سليمان نيازى باشا قومندانا للجيش المصرى فى السودان ، ولم يكن أيضاً فى كفاية عبد القادر باشا ، وجعلت الجنرال هكس (باشا) Hicks رئيساً لأركان حرب الجيش فى السودان ، وعهدت إليه بقيادة الحركات الحربية ضد المهدى ، فكان هذا التعيين بعيداً عن الحكمة ، لأن ثورة المهدى كان لها طابع دينى ، فلم يكن من أصالة الرأى تعيين قائد أجنبى مسيحى يتولى قيادة الجيش المعدّ لإخمادها ، لأن مجرد هذا التعيين يثير روح التعصب فى نفوس الثوار ، ويزيد من عدد أنصارهم وأشياعهم .

وقد وقع الخلاف بين هكس وسليمان نيازى باشا ، مما كان له أثره فى تخاذل الجيش المصرى ، ولم يكن هكس باشا ذاته من القواد الأكفاء ، بل هو ضابط انجليزى خدم فى الهند وتقاعد برتبة كولونل ، وجاء مصر سنة ١٨٨٢ ، فعهدت إليه الحكومة بهذه المهمة الخطيرة ، وكان أولى بها عبد القادر باشا حلمى الذى برهن على كفاءته وبسالته فى إخماد الثورة فى سنار والجزيرة .

هزيمة الثوار فى المرابيع

٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣

خرج سليمان نيازى باشا من الخرطوم وجمع فى الكوه نحو ٥٦٠٠ مقاتل لقمع الثورة فى الجبلين (جنوبى الكوه) ، فالتقى هذا الجيش بالدراويش فى (المرابيع) يوم ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ ، وأوقع بهم وانتصر عليهم انتصاراً كبيراً ، وأبلى ضباط الجيش وخاصة الميرالاى حسين بك مظهر (باشا) والميرالاى ابراهيم بك حيدر (باشا) وسائر الجنود البلاء الحسن فى هذه الواقعة[١] ، ثم عاد سليمان نيازى ومن معه إلى الخرطوم .

وبعد قليل أمرت الحكومة الجنرال هكس بالزحف على المهدى فى كردفان ، فوقعت فى الخطا الذى حذرها منه عبد القادر باشا حلمى ، واشترط هكس أن ينفرد بالقيادة العامة على الجيش ، دون سليمان نيازى باشا ، فأجابته الحكومة إلى طلبه ، وأقصت سليمان نيازى عن قيادة الجيش ، بأن عينته فى أول اغسطس سنة ١٨٨٣ حكمداراً لشرقى السودان وسواحل البحر الأحمر[٢] ،

---

(١) عن الوقائع المصرية عدد ٣ و ٩ مايو سنة ١٨٨٣

وقد أثنى اسماعيل باشا سرهنك على اللواء حسين مظهر باشا فقال عنه فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار) ج ٢ ص ٤٧٢ انه من الضباط المصريين الأذكياء ذوى الشجاعة والبأس ، وانه كان يشدد النكير على الحكومة لتعويلها على حملة هكس ، وكان رأيه فيها لا يختلف عن رأى عبد القادر باشا حلمى ، وانه رفع تقريراً إلى الحكومة أبان فيه عن سوء نتائج الحملة وذيله بنظرة صائبة فى مستقبل السودان جاء فيها ما خلاصته أن السودان له السيطرة على النيل الذى هو حياة مصر ومصدر رخائها ، وأن إهمال أمر السودان وتركه تحت رحمة المهدى لا يبعد أن يؤدى إلى وقوعه فى يد دولة من الدول اللائى يطمحن إلى الاستيلاء عليه « وهن على ما نعلم ساهرات لا يغمض لهن جفن ، وإذا وقع السودان فى يد إحداهن باتت مصر تحت رحمة تلك الدولة المالكة للسودان ، وأمسى النيل فى قبضة يدها وتصرفها ، ولا تخفى نتائج ذلك على أحد » ، وختم كلامه بقوله ، « ان تسيير حملة على المهدى يجعل مثل هذا الأمر وشيك الحصول دانى الوقوع »

وقد وقع مع الأسف ما كان يتوقعه هذا القائد العظيم الذى كان يبصر بنور رأيه الرشيد ما كانت ترمى إليه السياسة البريطانية ، وكان رحمه الله من شهداء حملة هكس كما سيجىء بيانه

(٢) الوقائع المصرية عدد ٨ اغسطس سنة ١٨٨٣

وقد نشر بياناً فى الجيش لمناسبة سفره إلى مقر منصبه الجديد ، يدل على شدة أسفه على فراق مركزه فى تلك الظروف العصيبة ، قال : « تعلمون جميعاً أن القوة لا تكون إلا بالاتحاد ، ولا اتحاد إلا إذا اتجهت جميع الأفكار إلى المصلحة العمومية ، وهى حفظ البلاد وراحة العباد ، ولقد أقمت زمنا فيما بينكم واختبرت أفكاركم حتى صرت على يقين من كمال طاعتكم وحسن اهتمامكم وبسالتكم ، وأعظم شاهد على ذلك واقعة الجبلين التى بددتم فيها شمل الأشقياء الباغين ، ومحوتم بأقدامكم أثر أولئك المفسدين ، وكان من أعظم آمالى أن أشاركم فى تمام المأمورية التى ستجعل لكم فى تاريخ العالم ذكراً جليلا ، غير أنه بمقتضى الأمر العالى الذى صدر لى من لدن سيدى ولى النعم الخديو الأعظم قد تعينت حكمداراً لعموم شرق السودان وسواحل البحر الأحمر ، وإنى وإن كنت سأبارح هذه البلاد آسفاً على فراقكم ، لكن يخفف عنى هذا الأسف أكيد آمالى فى أنكم بعون الله سبحانه ستكون جميع أعمالكم عنوان فخار الضباط والعساكر المصرية ، وأبشركم بأنكم ستنالون عن ذلك رضا الله تعالى والتفات الحكومة السنية وعظيم المكافأة من لدن الجناب العالى الخديو أدامه الله »[1]

الثورة فى السودان الشرقى

اندلع لهيب الثورة إلى السودان الشرقى عقب سقوط الأبيض فى يد المهدى سنة ١٨٨٣ ، فأخذ عامله المشهور (عثمان دقنه) يثير القبائل على الحكومة ويحرض الناس على مبايعة المهدى ، وكان البطل « محمد بك توفيق » يتولى محافظة سواكن ، وتحت إمرته الحاميات المصرية الموزعة بين (سواكن) و (طوكر) الواقعة على بعد ٤٠ ميلا جنوبيها ، و (سنكات) على مثل هذه المسافة غربيها .

---

(١) الوقائع المصرية عدد ٣٠ اغسطس سنة ١٨٨٣

واقعة سنكات

٥ اغسطس سنة ١٨٨٣

فلما اقترب عثمان دقنه من (سنكات) يريد فتحها ، بادر إليها البطل توفيق بك يدافع عنها ، وهى من المواقع الهامة من الوجهة الحربية ، إذ هى أهم موقع على طريق بربر وسواكن ، وهاجمها الدراويش بقيادة عثمان دقنه يوم ٥ اغسطس سنة ١٨٨٣ ، ولكن توفيق بك دافع عنها بنفسه وبرجاله دفاع الأبطال ، فرد الثوار على أعقابهم ، وقُتل منهم كثيرون ، منهم أحمد دقنة ابن عم عثمان ، وجرح فى الواقعة عثمان دقنه جرحاً بليغا ، وارتد الثوار إلى جبل (أركويت)[1] وأصيب فى هذه الواقعة البطل توفيق بك بعدة جروح ، ولكن دفاعه تكلل بالنصر .

واقعة التيب الأولى

٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣

وظلت الحرب سجالا بين جنود الحكومة وجموع الثوار ، وحاصر هؤلاء (طوكر) ، فخرج اللواء محمود باشا طاهر فى قوة من الجند تبلغ ٥٥٠ رجلا لنجدة طوكر ، يصحبه الكابتن (مونكريف) قنصل انجلترا فى جده ، فتربص بهم الدراويش فى آبار (التيب)[2] يوم ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، فأوقعوا بهذه النجدة وقتلوا معظم رجالها ومنهم الكابتن مونكريف ، وفرّ طاهر باشا إلى سواكن ، وقد وقعت هذه المعركة يوم واقعة (شيكان) التى سيرد الكلام عنها ، وعزل محمود باشا طاهر على أثر هذه الواقعة ، ووضع عثمان دقنه الحصار

---

(١) جنوبى سنكات ، مشهور بطيب مناخه ، وهو الآن مصيف الحاكم العام للسودان

(٢) شمالى طوكر ، بينها وبين ترنكتات (ميناء طوكر) ، وقد اشتهرت لكثرة المعارك التى حصلت فيها بين الجيش المصرى والدراويش (انظر الخريطة ص ٩٢)

على سواكن ، فصارت القواعد الثلاث المهمة وهى سواكن وطوكر وسنكات محصورة بجموع الدراويش ، ومركزها فى شدة الحرج .

واقعة طماى الأولى

٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣

وبعد أن شفى عثمان دقنة من جراحه حشد نحو ثلاثة آلاف من رجاله ونزل بهم فى آبار طماى على نحو ٢٠ ميلا من سواكن ، وأخذ يهاجمها ، وقطع الطريق بينها وبين سنكات ، وشدد الحصار على سواكن ، فخرج إليه الضابط كاظم افندى على رأس قوة من خمسمائة من الجنود السودانيين و ٢٠٠ من الباشبوزق والتقوا بعثمان دقنه ورجاله يوم ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣ بالقرب من طماى (التمنيب) فظفر بهم الدراويش [1] بعد أن قاتلوا قتال الأبطال ، وقتلوا عن آخرهم ولم ينج منهم سوى ٤٥ رجلا ، فكان دفاعهم يشبه فى بطولته دفاع توفيق بك عن سنكات .

عود الى كردفان

كارثة شيكان — ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣

اعتزم الجنرال هكس أن يسير بالجيش من الخرطوم إلى الأبيض عاصمة كردفان ، ليسحق المهدى بها ، ولكن هكس باشا لم يقدر قوة خصمه ، ولا درس طرق الزحف فى تلك الأصقاع السحيقة ، بل غامر بالحملة مغامرة كان مصيرها الهلاك ، وكان جيشه مؤلفاً من نحو ثلاثة عشر ألف مقاتل ، معظمهم من جيش عرابى القديم كما تقدم بيانه ، وتدل الظروف والملابسات على أن الغرض من تعريضهم إلى هذا الزحف وما يكتنفه من المهالك هو التخلص من هذا الجيش والقضاء عليه بحجة محاربة العصاة ، وبذلك تفقد مصر البقية الباقية من جيشها ، ويزداد الاحتلال اطمئناناً على سلطانه فى مصر .

---

(١) المهدية والسودان المصرى للسير رجنلد ونجت باشا ص ٩٥

تحركت الحملة من الخرطوم فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٣ ، براً وبحراً ، حتى بلغت (الدويم) على النيل الأبيض ، وهناك حشد هكس باشا جيشه ، وصحبه علاء الدين باشا حكمدار السودان الذى أمرته الحكومة أن يقدم إليه كل ما يطلب من المعاونة ، وجعلته قومندانا ثانياً للحملة ، وكان من ضباطها العظام اللواء حسين مظهر باشا واللواء ابراهيم حيدر باشا ، وأمراء الألايات ، سليم بك عونى ، والسيد بك عبد الخالق ، وحسين بك فهمى ، ورجب بك صديق ، وصحب هكس أيضاً بعض الضباط الإفرنج ومكاتبى الصحف الإنجليزية ، ليشهدوا هذه الحملة العتيدة .

تحركت الحملة من الدويم[1] فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٣ قاصدة الأبيض بطريق الصحراء (راجع الخريطة ص ٩٢) ، وأخذت تسير فى مجاهل كردفان ، وتقطع المراحل الشاسعة ، فى تلك الأصقاع النائية ، وبلغ ماقطعته نحو مائتى ميل ، وكانت مقدمات الحملة تنذر بأنها سائرة إلى الهلاك لا محالة ، فقد كان الخلاف مستحكما بين هكس وعلاء الدين ، ولم يكن هكس على شىء من الكفاية فى قيادة الجيوش والمعارك ، وكانت حالة الجيش المعنوية سيئة ، إذ كان الضباط والجند يعتقدون أن الحكومة أنفذتهم إلى تلك الأصقاع للتخلص منهم ، لأنهم جيش عرابى القديم ، وكلما جدّ الجيش فى زحفه ، أنهكه التعب والجوع والعطش ، ولم يكن هكس يسير على هدى ، لأنه كان يجهل مفاوز البلاد ومسالكها ، وجعل يستعين ببعض المرشدين والأدلاء ، ليدلوه على الطريق ، وقد اتضح أن معظمهم عيون وجواسيس للمهدى ، ينقلون إليه حركات الجيش المصرى ، وكانت طلائعه تناوش الحملة فى الطريق .

ويكفيك لتقدير ما عاناه الجيش فى قطع المسافات البعيدة أن تعرف أنه تحرك من الدويم فى ٢٤ سبتمبر ، وبلغ (منهل الرهد) فى ٢٠ اكتوبر ، وأقام فيها ستة أيام ، ثم استأنف السير ، فوصل إلى (منهل علوبه) يوم ٢٩ اكتوبر

(١) جنوبى الخرطوم بنحو مائة ميل

ومنها إلى وادى كشجيل ، ثم إلى غابة شيكان[١] ، حيث وقعت الواقعة يوم ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، فكأن الجيش ظل يسير أكثر من شهر قبل أن يشتبك مع جيش المهدى ، وقد وصل منهوك القوى من المسير فى تلك المسالك الوعرة والجهات المقفرة ، وابتعد عن قاعدته الحربية ، وانقطعت صلته بها ، فصار يسير تحت رحمة المخاطر والأقدار ، كل ذلك والمهدى يرقب حركاته ويتتبعها ، بل يستدرجه بواسطة عيونه وجواسيسه إلى الوقوع فى شباكه وحبائله .

فلما كان يوم ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ (٤ محرم سنة ١٣٠١ هـ) ، سار هكس بجيشه حتى دخل وادياً مفتوحاً تحيط به من الجانبين غابة كثيفة ، كان المهدى قد حشد فيها معظم جموعه ، فلم يكد الجيش يدخل هذا الوادى حتى أطبقت عليه جموع المهدى من كل جانب ، واخترقوا صفوفه ، وأعملوا فيه السيف ، فأمعنوا فى الجنود ذبحاً وقتلا ، وقد قاتل الضباط والجنود ما استطاعوا ، ولكن قوات المهدى سدت عليهم المسالك ، فكانت الواقعة أشبه بمجزرة بشرية ، قتل فيها الجيش برمته ، قواده وضباطه وجنوده ومنهم هكس وأركان حربه ، وعلاء الدين باشا ، وجميع الضباط والجنود ، ولم ينج من القتل سوى ملازمين اثنين وثلثمائة جندى اختبأوا بين الأشجار ، فأخذوا أسرى ، وفنى الجيش بأكمله فى هذه الواقعة المشئومة .

كتب السير رجنلد ونجت باشا حاكم السودان العام الأسبق عن هذه الواقعة لمناسبة زيارته لمكانها فى شتاء سنة ١٩٠٦ ، قال : « زرت ميدان الواقعة التى قتل فيها الدراويش المرحوم الجنرال هكس باشا وأفنوا كل جيشه سنة ١٨٨٣ ، ومن الغريب أن العساكر كانوا فى حالة شديدة من العطش مع وجود بركة كبيرة من المياه على بعد ميل واحد عنهم ، ولكنهم لم يعلموا بها ، والمكان واقع على بعد ثلاثين ميلا جنوبى (الأبيض) ، فى وسط غابة كثيفة ، ولا أشك فى أنه لو كانت النجدة المرسلة لرفع الحصار عن الأبيض أكثر عَدداً وأقوى

---

(١) على بعد ثلاثين ميلا جنوبى الأبيض ، وتسمى الواقعة باسمها ، وتسمى أيضاً فى بعض المراجع باسم كشجيل باسم الوادى القريب منها

عُدداً ، لكانت لاقت ما لاقته حملة هكس ، وإرسال تلك الحملة فى أحوال كهذه يعد ضرباً من الجنون ، وهو أكبر دليل على أن الحكومة فى ذلك الحين لم تكن عالمة بحقيقة الحال ولم تحسب حساباً للصعوبات التى لا بد لكل جيش عظيم من ملاقاتها ومروره ببلاد كهذه »

ولعلك تلحظ أن هذه الكارثة هى أول عمل حربى للجيش المصرى بعد أن تولى تنظيمه وقيادته السير افلن وود ، أول سردار انجليزى له ، وقد وقعت هذه النكبة حين كان يتولى وزارة الحربية عمر باشا لطفى الذى وقع فى عهده تبديل نظام الجيش وسيطرة الإنجليز عليه ، وكلا الرجلين من أول المسئولين عن هذه الكارثة ، وتقع المسئولية الكبرى على السياسة الإنجليزية التى أقصت عبد القادر باشا حلمى عن قيادة الجيش بالسودان ، واستبدلت به قواداً غير أكفاء ، فاستدعاء هذا القائد الباسل هو التمهيد لنكبة شيكان ، قال غردون باشا فى هذا الصدد : « كلما فكر الإنسان فى فداحة الخسائر فى الأرواح فى السودان منذ سنة ١٨٨٠ لا يمتنع عن أن يتمنى إعدام السير أوكلن كولفن والسير ادوار مالت والسير شارلس ديلك ، فإن هؤلاء الثلاثة الذين كانوا مستشارين للحكومة البريطانية فى مسألة السودان هم المسئولون عن هذه الكوارث[1] » .

ارتجّت أنحاء السودان لانتصار المهدى فى واقعة (شيكان) ، وزادت هيبته فى نفوس الأهالين والحكام ، وتداعت سلطة الحكومة أمام هذه الكارثة ، وبادر الحكام الأجانب الذين كانوا يتولون حكم المديريات إلى التسليم للمهدى ، ففى ديسمبر سنة ١٨٨٣ سلم رودلف سلاطين باشا فى (داره) ، وكان وقتئذ حاكما على دارفور ، ثم سقطت (الفاشر) عاصمة المديرية ، ودانت دارفور كلها لسلطة المهدى (يناير سنة ١٨٨٤) ، وسلمت مديرية بحر الغزال فى ابريل سنة ١٨٨٤ ، وكان لبتن بك الإنجليزى مديراً لها ، فحذا حذو سلاطين باشا وانضم إلى أتباع المهدى ، وامتدت روح العصيان إلى إقليم خط الاستواء بعد سقوط بحر الغزال ، ولكن بسالة أمين بك حاكم هذا الإقليم ومن معه من

(١) يوميات غردون ص ١٥

الضباط والجند حفظت هذا الإقليم وجعلته بمنجاة من سيطرة الدراويش عدة سنين كما سيجيء بيانه .

طلب انجلترا من الحكومة المصرية

إخلاء السودان

قوبلت أنباء واقعة (شيكان) فى مصر بالحزن والجزع ، أما فى انجلترا فقد قوبلت بالجمود بل بالغبطة ، لأن السياسة الإنجليزية هى التى دبّرت حملة هكس ، وهى عالمة أن مصيرها إلى ما صارت إليه من الهلاك ، لكى تتخذ من هذا المصير ذريعة (لتنصح) للحكومة المصرية بإخلاء السودان ، وبذلك ضحت بهكس وحملته ، كما ضحت بغردون من بعده ، تحقيقاً لمطامعها فى السودان .

فقابل السير إفان بارنج Evelyn Baring (اللورد كرومر) الخديو توفيق باشا ، وأبلغه تعليمات الحكومة الانجليزية التى تلقاها فى هذا الصدد ، وهى أنها (تنصح) إلى الخديو بإخلاء السودان ، وسحب الجيش المصرى منه ، وقابل أيضاً شريف باشا رئيس الوزارة ، وأنهى إليه وجهة نظر الحكومة البريطانية ، فكان جواب شريف باشا ان مصر ترى المحافظة على السودان بخمسة عشر ألف جندى لا غير ، وان الحملة التى شرعت الحكومة وقتئذ فى إعدادها كافية لإدراك هذه الغاية ، وان التخلى عن السودان يضر بمصالح مصر سياسيا واقتصاديا ، ولا ترى الحكومة على الأخص وجها لإخلاء الخرطوم وسواها من الولايات الخاضعة التى لم تمتد إليها الثورة ، وفيها الحاميات القادرة على حفظها ، فظهر الخلاف فى وجهة النظر بين شريف باشا والمعتمد البريطانى ، وتلقى السير إفان بارنج من اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا رسائل برقية عدة لكى يصل إلى إقناع الخديو بإخلاء السودان وسحب الجنود المصرية إلى وادى حلفا ، وأهم هذه الرسائل تلغرافه المشهور المؤرخ فى ٤ يناير سنة ١٨٨٤ ، الذى نوهنا إليه آنفا (ص ٢٨) ، والذى صرح فيه بأنه

إذا وجد من الوزراء المصريين من يخالف النصائح البريطانية ، فمن الضرورى أن يتنحى عن الحكم .

استقالة شريف باشا

٧ يناير سنة ١٨٨٤

وقد وافق الخديو توفيق باشا على إخلاء السودان ، ولكن شريف باشا أبى أن يجيب الحكومة الانجليزية إلى طلبها ، ووقف موقفه المشهور ، واستمسك بارتباط السودان بمصر ، وقال كلمته المأثورة :

« إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا »

وآثر الاستقالة احتجاجا على إخلائه ، وعلى تدخل الإنجليز واعتدائهم على حقوق مصر واستقلالها ، فقابل الخديو فى ٧ يناير سنة ١٨٨٤ ، وقدم إليه استقالة الوزارة[1] ، وقد أراد شريف باشا أن يسجل على الاحتلال عدوانه على حقوق مصر ، فلم يبن استقالته على الأسباب الصحية كما جرت العادة بذلك ، بل بناها على الأسباب الصحيحة ، فذكر فى استقالته أن الدولة الانجليزية تطلب إخلاء السودان ، وهذا ما لا سبيل إليه ، وذكر ما طلبته من اتباع نصائحها بدون مذاكرة فيها ، قال : « ولا يخفى أن هذه المقترحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصادرة فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ التى نص فيها على أن

---

(١) هى وزارة شريف باشا الرابعة . وكانت مؤلفة منذ اغسطس سنة ١٨٨٢ كما يأتى : شريف باشا للرياسة والخارجية ، رياض باشا للداخلية ، عمر باشا لطفى للحربية والبحرية ، على حيدر باشا للمالية ، على باشا مبارك للاشغال ، أحمد خيرى باشا للمعارف ، حسين فخرى باشا للحقانية ، محمد زكى باشا للأوقاف ، ثم استقال منها رياض باشا فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ على أثر تخفيف الحكم على عرابى وزملائه وعين بدله اسماعيل أيوب باشا ، ثم استقال هذا فى مايو ١٨٨٣ وعين بدله أحمد خيرى باشا وزير المعارف وعين بدله لوزارة المعارف محمد تدرى باشا .

الخديو يجرى أحكام البلاد باشتراكه مع النظار، فبناء على ذلك نضطر هنا إلى أن نطالب من مقامكم العالى أن تقبلوا استعفاءنا ، لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية».

بهذه الاستقالة سجل شريف باشا احتجاج مصر على سلخ السودان عنها وعلى تدخل الانجليز فى شؤون الحكومة المصرية واعتدائهم على استقلالها ، وبهذا الموقف المشرف ختم شريف باشا حياته السياسية .

obeikandl.com